الحزن في شعر نازك الملائكة بين الثابت والمتحول دراسة موضوعية فنية

المدرس المساعد
أزهار فنجان صدام
جامعة ذي قار- كليـــة التربيـــة

الملخص :ـ

يعد الحزن ظاهرة اجتماعية ونفسية لها أسبابها الموضوعية والذاتية وهي النتيجة الحتمية لتفاعل تلك الأسباب مع تطور الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحالة النفسية للفرد ودرجة الإحساس بما يحيط به.

وإذا كانت عاطفة الحزن هي الغالبة على مجموعة "عاشقة الليل" وتشبع بالنسيج العضوي لأغلب قصائدها ، الأمر الذي يجعلها المحور الأساس فيها ،فأن المحور الثاني يدور حول عاطفة الحب.

وبذلك يكمن أن نلمس أن (الحب) في هذه المجموعة مرتبط بالحزن والكآبة من ناحية ومغلف بالضباب من ناحية ثانية.

وقد يبدو في ما قدمناه من كلام عن عاطفة الحزن لدى الشاعرة كما لو كانت هذه العاطفة مأخذا - وهذا ما درج عليه اغلب الباحثين- وهو ليس بصحيح لعدة أسباب: الأول :أن الحزن عاطفة نبيلة شأنها شأن بقية العواطف الإنسانية الخيرة/ ولها دواعيها وأسبابها في أي زمان ومكان ، وان اختلفت من شأن لأخر باختلاف الظروف الذاتية والموضوعية

الثاني إن نازك الملائكة في (عاشقة الليل) ومن خلال هذا الحزن كانت صادقة اشد الصدق مع نفسها ،ومع قراءتها .

الثالث إن ما بدا يأسا أو فشلا أو حتى ثورة -كما سنبين فيما بعد - كنتيجة لهذا الحزن .مصرحا به أو مخبوءا في النسيج العضوي للقصيدة .

هذا يعني أن دائرة التوجه قد اتسعت نسبيا منذ مطلع الخمسينيات؟وحتى صارت هي الدائرة الرئسية في مجموعتيها التاليتين (شجرة القمر) و (يغير ألوانه البحر) إذ انحسر الألم واليأس إلى محيطها الخارجي ،تاركين مكانها للفرح والحس الاجتماعي والقومي والإنساني.

الدوافع الذاتية لدى نازك الملائكة هي اقوي الدوافع جميعا على كتابة الشعر.

Sorrow in the Poetry of Nazik Al-Mala'ika between the Static andtheChangeable (An Objective Study)

Abstract

Sorrow is a social and psychological phenomenon that has subjective and objective reasons. It is an inevitable result of the interaction between these reasons and the political, social , economic and psychological state of a person, and his awareness of his surroundings.

Sorrow is the prevailing emotion in "Night Adorer" collection. It saturates the organic texture of the poems, and becomes their core. The second core of the collection is love emotion. Therefore, we feel that love in this collection is associated with sorrow and melancholy, and is submerged in mist.

Accordingly, it might appear that sorrow is a defect—as often researchers consider—which is not true for many reasons. First, sorrow, like any other emotion, is noble. It has its own motives in conformity with place and time. It might differ in accordance with subjective and objective conditions. Second, in this collection, Nazik Al-Mala'ika has been so truthful to herself and to her reading. Thirdly, what seems as hopelessness, failure or revolution—as we will show later—resulting from that sorrow, is declared or implied in the organic texture of the poem.

This means that her aspirations have become wider early in the fifth decade. These aspirations became the core of her later collections,(Tree of the Moon) and (The Sea Changes its Colors), for pain and hopelessness moved to her surroundings, leaving in their place social, national and humanistic sense and gladness.

To Nazik Al-Mala'ika, the strongest motives for writing poetry are subjective.

المقدمـــــة :

لا اظن شاعرةً من شاعرات العربية ، على مدى تاريخها الطويل ، بلغت ما بلغته نازك الملائكة في انتاجها الشعري او انجزته في ميدان التنظير الشعري . فهي ، والحال هذه ، علامة متميزة وبارزة لا في شعرنا المعاصر فحسب ، بل في الشعر العربي كله .

اصدرت نازك الملائكة خمس مجموعات شعرية هـــي بحســـب تـــوالي صدورها : (عاشقة الليل) و(شظايا ورماد)و(قرارة الموجة) و(شجرة القمر) و (يغير الوانه البحر) ،الى جانب المطولة الشعرية(مأساة الحياة واغنية الانســـان) ، كما اصدرت كتاباً نقدياً في النظرية الشعرية هو(قضايا الشعر المعاصر) . اضافة الى مجموعة شعرية سادسة بعنوان (للصلاة والثورة) تضم قصائد عام ١٩٧٣ .

وليس من شك في ان هذه الشاعرة المبدعة قد حظيت بدراســـات نقديـــة عديدة [١] ، تناولت جوانب مختلفة من شاعريتها،كما تناولت جوانب من مواقفهـــا النقدية النظرية والتطبيقية،فما اعلم ــ وانا بصدد هذه الدراسة ــ مقدار ما ستضيفه الى تلك الدراسات،واغلبها مخلص وجاد؟على انني ــ على وفق منهجي ــ باعدت بيني وبين تلك الدراسات ــ الا ما اقتضته الضرورة في اثبات الـــرأي النقـــدي ــ وتركت نفسي حرةً في الدخول الى العالم الشعري الذي جبلته هذه الشاعرة .

بقدر ما يتعلق الامر بنازك الملائكة بالذات ، كشاعرة ارتبط اسمها بحركة التجديد الشعري المعاصرة وبحركة الشعر الحر . يكفـــي لدراســـتها مجموعاتهـــا الثلاث الاولى ، اذ ان ما اعقبها لا يضيف شيئاً جديداً الى مسارها الشعري ، بل على العكس من ذلك يؤشر حالة من النكوص ،حاولت الشـــاعرة ان تبررهـــا وان تنظّر لها. ولسنا نشك في ان هذا التنظير وتلك التبريرات تمثل قناعاتها هي بشكل صادق ، ولكننا لا نشك ايضاً في انها ليست مقنعة لكثيرين من المعنيـــين بحركـــة التجديد الشعري المعاصر ،وخاصة ان اسمها واسم السياب قد ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بها ،وأنّ المنحني الشعري للسياب ظل في تصاعد مستمر حتى وفاته ،في حين بدأ عند نازك الملائكة بالهبوط بعد مجموعتها الثالثة.

١ــ عاشقة الليل

اولى مجموعات نازك الملائكة الشعرية .وقد بدت فيها ــ في هذا الوقت المبكر ،وفي ضوء الظروف الموضوعية المحيطة انذاك ــ شاعرةً فذة ذات اصالة عميقة ، وحساسية مفرطة في التعبير عما يختلج في نفسها وعقلها من عواطف واحاسيس وافكار ، طابعها العام الحزن واليأس والتشاؤم . وعبر هذه العواطف والأحاسيس والأفكار نصل بالعالم الخارجي ، لا بتجرد موضوعي ، بل بانفعال ذاتي محض.وكان هذا ــ على اية حال ــ طابع المرحلة وخصائصها الرومانسية . ولما كانت هذه الخصائص سمة مشتركة بين شعر جميع الشعراء الشباب يوم ذاك ،فمن باب اولى ان تتركز لدى نازك الملائكة ،وهي المرأة المقيدة بقيود اضافية ،لا يتصورها على حقيقتها الاّ من عاش تلك المرحلة .

في (عاشقة الليل)[٢] تركز الحزن المزدوج بالعاطفة المتوقدة ، ومما يبدو انه ثورة ، تكشف العين النافذة من خلالها فشلاً مراً في الحياة ،أكدته مجموعتها الثانية (شظايا ورماد) عام١٩٤٩. ومقدمة هذه المجموعة ــ اعني (عاشقة الليل) ـــ اهمية خاصة من هذا الجانب ،لكونها صادرة من شخص خَبرَ الشاعرة عن كثب ، اعني اختها (احسان الملائكة)، اذ كشفت عن بعض الدوافع المؤثرة في نزعتها وتكوينها الشعري،كما حددت امامنا نقطة الانطلاق الى تبني دوافع اخرى . تقول :

((... وحينما بلغت عهد نضجها العاطفي والروحي،اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية ،فتركز الحزن في نفسها،ولم تعد ترى في الحياة الا جانبها المظلم))

والمقدمة بعد ذلك لا تكشف عن دوافع اخرى غير الحرب العالمية الثانية ــ وان اشارت الى حساسية الوالدين، والى بلد يناضل في سبيل حريته ــ على اننا لا نجده وحده كافياً لتفسير النزعة الحزينة للشاعرة،كما انها تجردنا من كل تفسير لهذه النزعة في مجموعتيها التاليتين بعد انتهاء الحرب .

واولى مظاهر هذا الحزن والاحساس باليأس ، الرغبة بالهروب الى الماضي ، والتلذذ باستعادة الذكريات بوصفها الملجأ الاخير ، وبوصف الماضي

زمناً مرغوباً فيه بالقياس الى الحاضر ، وان كان هو بذاته حاضراً في يومٍ مـــا ، كما في (اشواق واحزان)

أين منّي حرارةُ الامس ، والحـــــا ضر يمشي بين الأسى والخمـــودِ
؛ أسفاً للماضي الالهي هـــــل مـــــا تت أغانيهِ في فؤادي الوحيـــدِ ؛[٣]

أو (على الجسر)

عبثاً اقـــــاومُ نـــارَ أحزاني فلـــــن يخبوْ اللهيبْ
أبداً تذكّرني الحيـــــاةُ بروعةِ الماضي الحبيبْ[٤]

بل يمكن ان نلاحظ ذلك في عنوانات بعض القصائد مثـــل : (ذكريـــات ممحوه) و (ذكرى مولدي) و (شجرة الذكرى)[٥]. ولا خلاف في ان المـــرأة عاطفية ازاء الاحداث ، فاذا لم تلامس الفرح فإن الحزن يقودها الى الاستسلام امام الحياة حتى يبلغ حدّ العجز الامر الذي يمتنع عليها معه حتـــى اســـتعادة الماضـــي وذكرياته ، كما في قصيدة (ذكريات ممحوة)

وجهكَ أخفاهُ ضَبَـــــاب السنينْ
وضمّهُ المـــاضي إلـــى صدرهِ
ألقى عليه من شبابي الحزينْ
أحزان قلبٍ تـــاه فـــــي ذعرهِ
...
وصوتك الخافيْ خَبَـــا لحنُـــهُ
وأوحشتْ سمْعـــي أصـــداؤه
فلستُ أدري الآن مـــا لونـــهُ
ما رجعُهُ الصافـــي ، وايحاؤه[٦]

تقول هذا فتختار الفاظها ، وتضع كل لفظ في مكانه الملائم له ، فالوجه ــ حسب طبيعة الأشياء ، استعدادها للتهرب والافلات ــ أول ما يتعرض للشحوب والخفاء، يليه الصوت الخافي العميق النبرات ، يليه لون العينين،يليه الشعر المتموج الفاحم ، وهكذا كان الترتيب على مستوى البناء . وكل هذه الملامح لها في النفس ذكريات .

كما ان الضباب في الأبيات مرتبط بغشاوة الحزن ، فهو ضباب منعكس من أحزان ، ويكفي لانقشاع الضباب شيء من هدوء النفس[٧] .

اذا كانت عاطفة الحزن هي الغالبة على مجموعة (عاشقة الليل) وتشيع في النسيج العضوي لأغلب قصائدها ، الأمر الذي يجعلها المحور الأساس فيها ، فإن المحور الثاني يدور حول عاطفة الحب . وعاطفة الحب ــ كما هو معلوم ــ خلاّقة باعثة على الفرح والأمل حين تكون في اطارها الطبيعي ، ولكنها حين تنقلب الى حرمان تفتقد عذوبتها وجمالها وما فيها من مشاركة وجدانية ، وتتحول الى احباط ــ على حد مصطلح علماء النفس ــ غير ان الشعراء والفنانين يتسامون بها ــ على حد مصطلح علماء النفس ايضاً ــ فيما يكتبون ويبدعون .

وكان من الممكن ان يكون حديثنا اكثر دقة واستنتاجاتنا اكثر موضوعية ــ ونحن نتلمس طريقنا في مثل هذا الموضوع الشائك ــ لو ذيلت كل قصيدة بتاريخ كتابتها ، ولكن الشاعرة لم تفعل ذلك . فالرجل نفسه يحرص احياناً على اخفاء هذه العاطفة ــ على نبلها ــ فكيف بالمرأة التي تمنعها التقاليد ويمنعها الحياء من البوح بها ؟ ثم كيف بهذه المرأة وهي شاعرة يطلع على شعرها آلاف القراء اليوم وغداً ؟ وهذا جعل الكثير من النقاد والدارسين يروْنَ ان سبب الحزن ذاتي ناتج عن (الاخفاق في الحب)[٨]

وفي ضوء ذلك يمكن ان نلمس انّ (الحب) في هذه المجموعة مرتبط بالحزن والكآبة ومغلف بالضباب وملفع بالغموض، تقول في (نغمات مرتعشة)

عُد لم يَزَل قلبي نشـــــيداً حالماً
يشدو بحبّكَ لحنُـــهُ المفتـــون
عُد فالكآبةُ أغـــرقتْ بظلامهـــا
روحي ،فليلـــي أدمُعُ وشجـــون
...
ذهبَ النهار بشاعري ، بنـــشيدِهِ
وبقيـــتُ غَسّق الظلامِ القاتـــمِ

أرنـــو ولاشئُ يـــــروق لناظري
وأصيحُ ، أين ملاحني وملاحمي؟
حبّي الالهيُّ النقـــــــــيُّ ظلمتَه
ووفاءُ روحي الشاعريِّ العابـــدِ
قلبي الرقيقُ أسأتَ فهْمَ حنيـــــنهِ
ونشيدُ احلامي وروحُ قصائدي(٩)

اجتزأت كثيراً من القصيدة .اذ انّ الحزن الذي يغلفها واضح ، غيـــر ان ميزة هذه القصيدة انها تكشف بصراحة عن هذه العاطفة ، وعن شاعرها الذي اساء فهمها وتركها نهبة للحيرة والأسى .وليس من شأننا هنا ان نتبين مـــن هـــو هـــذا المحبوب الذي تدعوه بشاعرها . ربما كان شبحاً من نسج خيالها واوهامها، فمـــن مجموع تسع وثلاثين قصيدة ــ بما فيها القصيدتان المترجمتان ــ لم نجد الا ثلاث قصائد تتلالأ فيها البسمة ويحلّق فيها الفرح هي : (عيد الانســـانية) و (جزيـــرة الوحي) و (عودة الغريب) . والذي يعنينا هنا القصيدة الاخيرة التي تقول فيها :

قلبيَ الذابلُ ا لحزينُ الذي مـــــا تَ وذابت افراحُـــــهُ ومنـــــــاهُ
قلبيَ الشاردُ المعـــذّبُ بالأحـــــ ـــــــلام ما بين دمعـــــةٌ وأســـاهُ
مالهُ الآن خافقاً بنَدى الحـــــــبِّ يغنّي تحـــــــتَ النجـــــــوم هَوَاهُ
ويصوغُ المنى ويرجع للـــــــشا طئ جذلان مُرْســـــــلاً نجواهُ (١٠)

إن عدم التصديق ، والدهشة التي نلمحها في تساؤلها (ماله خافقـــاً بنـــدى الحب) يتلاشى في مجرى القصيدة، ويرتفع الفرح فيها الى ذروته فـــي مقطعهـــا الأخير ، الذي تقول فيه :

بمعانيك قرِّب النجم والسُّحْـــــ ـــــبَ لعَيْنيهِ والصّبا و الخلودا
يا شابَ الحياة يا فرحة الدنـــــ ـــــيا ويا بابَ نُبْلها المفقـــــودا

ولنتأمل هذه القوة في التعبير عن السعادة والفرح الطاغي ، وبخاصـــة فـــي هـــذه النهاية الدافقة بالطاقة والحياة، وفي هذه النداءات المشحونة بالفرح الغامر اللانهائي .ولكن هذا من اللحظات النادرة في هذه المجموعة .

ويرتبط بالمحور السابق رغبة الشاعرة العنيفة بالارتباط بشريك حياتها اولا (الزواج). وهو احد الاسباب المهمة التي ادت الى تركز الحزن في نفس الشاعرة، غير ما ذكرته اختها (احسان) . ومفاتيح هذا المحور كثيرة ، في هذه المجموعة وما بعدها ، نجدها اول ما نجدها في هذه الاشارة التي ارادتها غامضة في قصيدتها (ذكرى مولدي) :

أسفاً ضاعتِ طفولةٌ في المـا ضي وغابتْ افراحُها عن جفوني
وهي لو تعلمينَ أجمل مايمـ ـلك قلبي وما رأتْهُ عيوني
حينما كنتُ طفلةً أجهلُ السرَّ وأحيا في غفلةٍ من شجوني[١١]

وقد اكدت هذا الاشارة فيما بعد في قصيدة (لنفترق) من مجموعتها الثالثة (قرارة الموجة) التي ترتبط بعض قصائدها بأكثر من وشيجة بعاشقة الليل. تقول :

لنفترق الآن ، ما زال في شفتينا نَغَمْ
تكبّرَ أن يكشفَ السر فاختار صمتَ العدَمْ[١٢]

ولكنها تفصح عن بعض هذا السر فيما بعد بقولها من (ذكرى مولدي) :

إنّه يومُ مولدي ولقدَ مَرَّ بعُمْري الداجي كظلٍّ شقيٍّ
عشتُهُ في قصائدي ودموعي بين جُدْران معبدي الشاعريِّ
لا فؤادُ معي يُشاركُني حُزْ ني ويبكي على شبابي الدجيِّ
لا رفيقُ في غُرْبتي ووجومي غيرَ قلبي الشجيْ ودَمعي النقيِّ[١٣]

وهذه القصيدة مهداة الى صديقة من صديقات طفولتها لا تتذكر منها الا اسمها،ذكرتها بأجمل ايام حياتها،ايام الطفولة المرتبطة ذكرياتها بها،حينما كانت خالية الذهن(تجهل السر).ولا يمكن تفسير قولها(لا فؤاد معي يشاركني حزني) و (لا رفيق في غربتي ووجومي) الا في ضوء ما قدمناه آنفاً،والا هل عدمت الشاعرة حقاً مثل هذا بين اهلها وذويها وصديقاتها؟واذا كانت هذه مرارة بنت(الثلاث والعشرون) وحزنها وقلقها،فكيف ببنت الثلاث والثلاثين وبنت الثلاث والاربعين !؟

وقبل ذلك كانت تتساءل عما حلّ بصديقتها تلك : أعرفت طريقها وعاشت سعيدة هانئة شأنها شأن لداتها الباقيات ، ام ظلت رهينة وحدتها وغربتها واساها كالشاعرة ؟:

أتـــرى تذكرينَ مثـليَ أيّـا مّ صِـبانا وحُلْمـنَا المفقودا ؟
أم ترى قد نسيتني ونسِيتَ الأ مسَ في فرحةِ الشبابِ الرَّغيدِ ؟

...

ربما كنتِ يارفيقـــةُ مثلـي زورقاً في البحار عادَ حُطَامـا
الرّفيقاتُ غِبْـنَ عنكِ وآثـــ رنَ عليكِ الشـرورَ والآثامـا
فكتمتِ الشعورَ في قلبكِ الصّا في وصُنْتِ الأحزان والآلامـا
وقضيتِ الحياة في الوحدةِ الخر ساءِ تَسْتلهمينـــها الأحلامـا ؟(١٤)

والحقيقة ان اغلب قصائد (عاشقة الليل) تدور حول هذا المحور ضمناً او صراحة . ومن هنا فإن الاستشهاد على ذلك غير وارد لكونه يستدعي نقل نصوص هذه القصائد الكثيرة . غير اني سأستشهد بأبيات من قصيدة (السفر) اولاً ، وقد سمّت فيها ماشرت اليه بـ(الشاطئ المسحور) تقول :

عُدْ الى الشاطئ ، عدْ ما عاد يحلو لي البقاءُ
ذهبَ البحرُ بأصحابي الى حيثُ الضـــياءُ
أنا وحدي ، أيها الملاّحُ ، حـزنُ وبُـــكاءُ
يَرْجِعُ الزّورقُ بي وحدي اذا جـاءَ المساءُ
ذهبوا للشاطئ المسحور إذ عُدْتُ لوحـــدي
ذهبوا إلا أنا ، عُدتُ بأحزاني وسُهْـــدي(١٥)

انها تستخدم(الزورق) رمزاً لحياتها الذاتية، و(البحر) رمزاً للحياة و الزمن،و(الشاطئ) واحياناً (الشاطئ المسحور) رمزاً للحياة الزوجية المشتركة .

واستخدام هذه الرموز يتكرر في قصائد عديدة بنفس المعنى ،في هذه المجموعة وسواها . وهذا هو ما عنيناه حين اشرنا سابقاً الى ان عاطفة الحب عندها تأتي ملفعة بالضباب والغموض في كثير من الاحيان .

في قصيدة (الخطوة الاخيرة) نستروح نسمات مــن (بحيــرة لامــريّن) وعذابه وحزنه الرومانسي :

إشهدي أيتُها الأشجارُ ،أنّـــــــي
لن أرى ثانيةً تحــت الظِـــــلال
ها انا أمضي فلا تبكي لحـــُزْني
لايُعذّبْك اكتـــــــابي وابتهــالي
...
وَ وَداعــاً ،أنت ياحُــلمَ شبـــابي
أنت يامن صغتُهُ خمـــس سنــينْ
ها أنا أدفن ، في الأرض ، رغابي
وأواري أملـــي المُرَّ الحــزينْ (١٦)

فما هو هذا الحلم الذي عكفت عليه خمس سنين تصوغه فلا يستوي ، إن لم يكن اللقاء بشريك الحياة في الشاطئ المسحور ؟!

ونتيجة لهذا الحزن ،مصرحاً به او مخبوءاً في النسيج العضوي للقصيدة ، لم يكن في حقيقته الا غلالة خارجية تكشف العين النافذة من ورائها عــن تشــبث عميق بالحياة بلغ حد العشق وهذا هو المحور الرابع الذي يمكن استخلاصــه مــن هذه المجموعة . في مقطع من قصيدة (في وادي العبيد) تقول :

إن أكـــــن عاشقـــة الليلِ فكأســـي
مُشْرقُ بالضوءِ والحُـــبّ الورَيـــق
وجمَالُ الليلِ قـــــد طـــهّرَ نفســي
بالدُجَى و الهَمس و الصمْتِ العـــميق
ابـــداً يمـــــلأ اوهامــي وحسِّــي
بمعاني الــرّوح و الشِــعر الرقـــيق (١٧)

فإذا تجاوزنا التعبير الرمزي ،واخذنا ظاهر المعنى فإن العديد من البشــر رجالاً ونساءً يجدون في الليل ونجومه وهدوئه ملاذاً من الهموم وصــخب الحيــاة اليومية في النهار و متاعبها . ولكنها من جانب آخر تكشف عن هذا التشبث العميق

بالحياة و النور و الحب و الجمال ففي قصيدة (التماثيل) تكشف عن كراهتها الموت ،و عن التشبث بالحياة ،وبخاصة في مقطعها ما قبل الأخير :

آهِ لا لا أريدُ فلترحمِ الأيا مُ دمعي و شَقْوتي و اكتآبي
وليكنْ من لحني الحزينِ صدىً با ق بسمْعِ السنين و الأحقابِ
رحمةً لا تكن دموعي الدَفوقا تُ رثاءً مبكراً لشبابي (١٨)

إن هذه الصرخة للتشبث بالحياة تتحول الى توسل في قصيدتها (بين فكي الموت) التي قالتها اثر حمى صيف عام ١٩٤٥ ، اصابتها بالتشاؤم :

ها أنا بين فكي الموتِ قلباً لم يزل راعشاً بحُبِّ الحياةِ
وعيوناً ظمأى الى مُتَع الكو ن تناجي مفاتنَ الأمْسياتِ
لم أزلْ برْعماً على غُصْنِ الدهـ ـر جديدَ الأحلامِ و الامنياتِ
فحرامٌ أن تدفِنَ الآنَ يا مو تُ شبابي في عالمِ الأمواتِ

....

رحمةً بي يا أيّها الموتُ ،وآرفق بفؤادٍ نالتْ هواهُ الحياةْ
أعفني الآن من مفارقة الدنـ ـيا و دَعْني إلى غدٍ يا مَمَاتُ
لا أحبُّ الظلامُ فليكُ موتي في غدٍ حينَ تغرُبُ الظُلُماتُ
حينما تضحك الطبيعةُ في الوا دي الأغنِّ الحالي و تشدو الرُّعاةْ (١٩)

تكشف قصائد (عاشقة الليل) عن محور آخر ، يتعلق بما تنطوي عليه الشاعرة من اعماق مملوءة من الطبيعة ، مشفقة على الانسان من مآسي الحياة و احزانها ،كما في (مرثية غريق) و (المقبرة الغريقة) و (عيد الانسانية) و على الحيوان ، كما في (سياط و اصداء) ، و لكنها لأمر ما تغلف كل ذلك احياناً بالكراهية و البغضاء و الاحتقار ، كما في قصيدة (وادي العبيد) :

لا أريدُ العيشَ في وادي العبيدِ
بين أمواتٍ ... وإن لم يدفنوا ...
جثثُ ترسفُ في أسْرِ القيودِ

و تماثيــلُ احتــوتْها الأعْيـــــنُ
آدميّـــــــونَ و لكــنْ كالقــرودِ
و صيـــــاعُ شَرْســتهٌ لا تُؤمــنُ
أبداً أسمعهم عذْبَ نشيـــــــــدي
وهمُ نومُ عمـــــيقُ مُحـــــزْنُ (٢٠)

قد يكون بين الناس من هو كما وَصَفتْ ،و لكن التعميم في مثل هذه الحالة ليس صحيحاً . ان الازورار و التعالي على الناس و احتقارهم واضح فـــي هـــذا المقطع ، غير ان ذلك كله يتحول في المقطع الأخير من القصيدة الى الاحتجاج و الاصرار في هذا المقطع قد تحولا الى ما تسميه الشاعرة : ثــورة و تمــرداً فـــي قصيدتها التالية (ثورة على الشمس) ، فتهديها الى (المتمردين) و ترى فيها ان حزنها ما هو الا صورة لثورتها و تمردها ، و الالوهة تشهد على ذلــك ... و ان شحوبها و ارتعاش عواطفها و حيرتها ما هي الا النبوة المتمردة بالحزن ، و لـــذا فهي تثور على الشمس و النهار و تمقتهما ، و تعشق النجوم و الليل :

أضواؤك المتراقصـــاتُ جميـــعُها
يا شمسُ أضَعفُ من لهيب تمرُّدي
و جنونُ نارك لـــن يمزّقَ نغــمتي
مادام قيثاريَ المغرِّدُ فـــي يـــــدي
فاذا غمرت الأرضَ فلْتَتَـــــذكَّري
أني سأخلي من ضيائكِ مَعْبـــــدي
و ســـأدفِنُ الماضيْ الذي جَلّـــــلتهِ
ليخيِّمَ اللـــيلُ علـــى غـــــــدِي (٢١)

إن ما تسميه(تمرداً) هنا ما هو الا صورة اخرى من صور الضعف البشري الذي اشارت اليه فالقصيدة السابقة(وادي العبيد)،هذا الضعف البشري الذي

لا يتحمل مرارة الواقع،ولا قسوة الحياة ولا يستطيع لها دفعاً ،يتحول الى(غربة) ثم الى (حزن).

إن (عاشقة الليل) مجموعة من القصائد اقامت فيها (نـــازك الملائكـــة) معبداً فخماً للحزن . و لكنه حزن يخفي في داخله هيكلاً للحب و لعشق الحياة ،كما اشرنا سابقاً .

لقد اطبقت الحرب العالمية الثانية على (عاشقة الليل) بفكرة الموت التـــي كفنت اغلب قصائدها ،و على وفق ذلك اجمع العديد من النقاد و الدارسين [٢٢] ان سبب الحزن هو ــ خوف الشاعرة من الموت ــ اما الخيبة في الحياة و تحقيق حلم الحب بوجه خاص فقد طبعتها بطابع الحزن و اليأس ،و هذا جميعاً ظاهر حتى في القصيدتين المترجمتين ،وهما (البحر) لبيرون من (اسفار تشايلدها رولد) و(مرثية في مقبرة ريفية) لتوماس كري ، بل حتى في قصيدتها (الى الشـــاعر كيـــتس) المبنية على قصيدة (انشودة الى بلبل) ، جون كيتس الذي اعجبت به ــ شـــأنها شأن السياب في ذلك ــ هذا الشاعر الذي تغنت باناشيده الرومانسية العذبة .

و هذا الجانب من الموضوع يقودنا بالضرورة الى الكلام عن مدى اطلاع نازك الملائكة على الشعر الانكليزي و تأثرها به في جوانب من موضوعاته ــ و بخاصة لدى الشعراء الرومانسيين منهم ، كبيرون وكيتس و غيرهما ، ثم كري من شعراء المرحلة الانتقالية بين الكلاسيكية و الرومانسية ،لما طبع شعره مـــن كآبـــة استهوتها ــ و قد اشارت الشاعرة نفسها الى تأثرها في قصيدة (الجرح الغاضب) و قد اعتمد الكثير من النقاد ممن اشاروا الى تأثرها على قولها في مقدمة (شظايا و رماد)[٢٣] ان هذا الاثر ((الانكليزي)) يمكن ان ندعوه (ثقافياً) ــ بكل مـــا تعنيه هذه الكلمة ــ تأثرت بالشعراء العرب و الاجانب ،و لكنها صهرت هذا التأثر بصوت واحد و لغة واحدة هي لغة نازك .

٢ــ شظايا و رماد

و انتهت الحرب العالمية الثانية و لكن فكرة الموت و مظـــاهر الحـــزن و اليأس ، ظلت تفعل فعلها في مجموعتها الثانية (شظايا و رماد) و من هنا فمآسي

الحرب لم تكن وحدها السبب في ذلك،بل الامر يرجع الى تكوين الشاعرة النفسي ، و عدم قدرتها على التوافق مع الواقع . لحساسيتها المفرطة ،و مثاليتها و ربما لثقافتها التي باعدت بينها و بين مستويات كثيرة من الحياة ، هذا الى جانب فشلها آنذاك في تحقيق حلم المرأة بالاتحاد بشريك الحياة،و لا نقول الفشل في الحب ، لأن قصائد الشاعرة تعبر عن نفس عامرة و دافقة و جيّاشة بالحب بمختلف صوره . بل كيف كان بوسعها ان تكون شاعرة لو لم تكن كذلك ؟

اذا كانت قصائد (شظايا و رماد) امتداداً لقصائد (عاشقة الليل) بدرجة او باخرى ،لقربها جميعاً من الذاتية ، و تميزها بصدق التجربة الشعورية ،و جمال بنائها الفني،فإن المكتوبة عام ١٩٤٨ تخلصت من بعض خصائص (عاشقة الليل)و رموزها ، و اكتسبت خصائص و رموزاً جديدة .اما قصائد عام ١٩٤٧ فيجب الحاقها ــ لأغراض هذا البحث ــ بعاشقة الليل. كانت العاطفة في (عاشقة الليل) حادة ، عنيفة و صاخبة ،ممتزجة بالاحتجاج و التمرد ، فاستحالت في (شظايا و رماد) عاطفة هادئة متأملة اقرب ما تكون الى الاستسلام ،كأنما الشاعرة قد تعبت من الصراخ و العويل ، فمضت تغلف الحياة بروح اقرب الى اليأس منها الى الحزن ، و بفكر اقرب الى الحيرة و التردد منه الى الموقف المتشدد ، و كأنها بمرور الزمن اقتنعت بان الحياة يمكن ان ينظر اليها من زوايا متعددة . و ربما فسر هذا بنضوب العاطفة او بنضوجها بنفس الاتجاه .

و لعل (كبرياء) ــ اولى قصائد هذه المجموعة ــ من الامثلة الحسنة على ذلك ــ و ان ظل للعاطفة فيها بعض الصخب و العنف ــ و هي قصيدة، يلعب التناقض بين الصور فيها دوراً كبيراً في تركيب بنائها الفني . و بناؤها الفني متين و متكامل: كل بيت .. كل كلمة .. كل حرف .. كلها في مكانها ، متماسكة ، تتابع في اتساق فني محكم ، و تقف عند نهاية شامخة و من هنا ليس بوسعي الاجتزاء منها لأغراض الاستشهاد ــ و ما على القارئ الا الرجوع اليها في المجموعة ليتبين ذلك ، و انها من روائع الشعر التأملي . و مثلها في توظيف

التناقض بين الصور لخدمة الموضوع ، و البناء الفني ، و خلق جو نفسي خاص ، قصيدة (صراع) التي عمقت فيها الشاعرة هذا الاتجاه . كما في قولها :

لاتَسلني عن سرّ ادمعي الحرّ

ى فبعض الاسرار يأبى الوضوحا

بعضها يؤثرُ الحياة وراءَ ال

ــحسِّ لغزاً وإن يكن مجروحــا (٢٤)

و اذا كانت قصيدة(كبرياء) قد ظل فيها بعض صخب العاطفة و عنفها ، فإن خمود العاطفة و الشعور بالتعب و الملل و الاقتراب من اليأس ، تمثله قصائد كثيرة غيرها،منها (تواريخ قديمة و جديدة) و(عندما انبعث الماضي) و (عروق خامدة) و (الباحثة عن الغد) و (جحود) و غيرها .

و مسألة اخرى ، اراها ذات صلة بما سبق الحديث عنه ،بشكل او بآخر ، تتعلق بالرموز و استخداماتها .

وجدنا الرموز في(عاشقة الليل) ذاتية . الفاظها و دلالاتها مــن ابتــداع الشاعرة نفسها ،أي انها رموزها الخاصة بها:الزورق ــ البحر ــ الشاطئ ــ الليل ــ النجوم ــ الرياح ــ المعبد ...الخ غير انها في (شظايا و رماد)استبدلت بهــذه الرموز رموزاً اخرى غيرها. تستجيب للتطور الشعري و النفسي للشاعرة،و تتسق و الطابع التأملي لقصائد هذه المجموعة. بعضها ذاتي من ابتداع الشاعرة كذلك : الشظايا ــ الرماد ــ المرايا ــ السراب ــ الظل ..الخ .. و بعضها مســتفاد مــن الميثولوجيا اليونانية و الاغريقية : ابولو ــ نرسيس ــ يوتوبيا ــ ديانا ــ لابرنث . و قليلها من الشعبي العربي : شهزاد ــ كما في قصيدة (يوتوبيــا الضــائعة) :

هنالك حيــث وعــتْ شهــــرزاد أقاصيصَ غنّتْ بها ألــف ليلـــــهْ

وحيثُ دِيانا تســــــوق الضيــاء و نارسيسُ يعبُدُ في الشمـــس ظلَّهْ

هنالك يوتوبيـــــا في الضَبــاب على شَفَق لم تَــرَ العين مثلَـــــهْ(٢٥)

غير ان الذي يلاحظ هنا انها توظف الاسطورة في الاغلب لإغناء المعنى، وخلق ايحاءات مقصودة ، أي انها ظلت البناء الخارجي للقصيدة ، ولم ترتكز اليها

في بنائها الداخلي ، كما فعل السياب في الافادة من الرموز والاساطير . وكان بوسعها ذلك ، كما فعلت في قصيدتها (الخيط المشدود في شجرة السرو) من نفس المجموعة او (شجرة القمر) فيما بعد .

غير ان اهم ما يلفت النظر في عدد من قصائد هذه المجموعة من الخصائص هو : سيادة طابع الضياع والفراغ والعدم المرتكز على اللامحدود ، ونوع من الخيال الصوفي تفقد فيه المادة كل خصائصها المميزة ، وتستحيل اثيراً غامضاً يستعصي على اللمس والادراك ، وتختلط فيه الانفعالات العاطفية المتناقضة من حزن وفرح ، ولذة وألم ، ونجاح وفشل في اتساق وتغني في اللاحساس ! وصرنا نقرأ تعابير والفاظاً مثل:(لا لون ــ لا صوت ــ لا شكل ــلا معنى ــ لا لفظ ــ لا ظل ــ لا شيء ــ اللا امس ــ اللا غد ــ اللا كيان)...ا لخ ففي قصيدة (عروق خامدة) تقول :

نحن هُنَا وهمان ، لا لونا لا صوتَ لا شكلا
سرابُ لا شيئين ، لا معنى لا لفظ لا ظلّا

...

نبكي فلا تحنو علينا يدُ بربتةٍ من حنانْ
نحن هنا اللاأمس واللا غد نحن هنا اللا كيان[٢٦]

انها خارج الزمان والمكان . وفي قصيدة (نهاية السلم) :

هل مرَّ بنا زمنُ ؟ أم خضنا اللازمنا ؟[٢٧]

و في قصيدة (انا) :

أنا روحُها الحيران أنكرني الزمانْ
أنا مثلها في لا مكان
نبقى نسيرُ و لا انتهاءْ
نبقى نمرُّ و لا بقاءْ
فاذا بلغنا المنْحنَى
خلناهُ خاتمة الشفاءْ فإذا فضاءْ : [٢٨]

ان الاتجاه التأملي في (شظايا و رماد) ، و نضوج العاطفة ، و امتداد الزمن الذي يفرض نوعاً من الاستقرار النفسي ، قادت بالضرورة الى نوع من

التجرد النسبي عن الذاتية ، اشرنا الى وجوده في (عاشقة الليل) بحدود ضيقة ، و لكنه اتسع في (شظايا و رماد)، وكأن ذاتها التي تشغل جميع الآفاق قد انكمشت بعض الشئ لتفسح في المجال لرؤية اوسع و اشمل لما حولها من ضروب الحياة ،او استحالت غلالة شفافة ،لاستاراً صقفياً يحجب ما وراءه ــ تبدو الاشياء من خلالها في دائرة رؤية موشحة بخلجاتها الذاتية،و ما تضفيه على الصور و الحوادث من حركة والوان .. لتكشف اكثر فاكثر عن قلب مملوء من حب الناس، نابض بالطيبة،و تنزع عنه ما غطته به من مظاهر الكراهية و الاحتقار،التي كانت تدعوها احياناً بـ (الكبرياء)على ما بين دلالات هذه الالفاظ من بون شاسع.. وتعبد الطريق بعد ذلك ــ في مجموعاتها التاليةــ لتعميق الاتجاه القومي والانساني.

و من ابرز الامثلة على ذلك قصائد (مر القطار ــ خرافات ــ الكوليرا ــ لنكن اصدقاء ــ يوتوبيا في الجبال) ، و ان كانت تتفاوت فيما بينها ، في قربها من الذاتية و بعدها . في تلبسها و تجردها . وهي جميعاًــ عدا (الكوليرا) ـــ مما كتبته عام ١٩٤٨ ، بمعنى انها ــ بخصائصها و نزعتها ــ تنتمي الى (شظايا و رماد) لا الى (عاشقة الليل) .

٣ــ قرارة الموجة

تنحصر كتابة قصائد المجموعة الثالثة (قرارة الموجة) بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٣ . و ابتداء من هذه المجموعة تتوقف الخصائص الفنية عن النمو ، و تغدو قصائد المجموعة في افضل احوالها استمراراً لما قطعته الشاعرة من شوطٍ في (شظايا و رماد) . اما في الاحوال الاخرى فتمثل عودة الى ما كانت عليه في (عاشقة الليل) ، بل و اكثر من ذلك ربطت القصيدة بقيود جديدة . و لكن ما هذا مدار بحثنا الآن. فلم يبقَ للحديث عن هذه المجموعة الا المضامين التي عالجتها ، و تطورها الذاتي و النفسي ، و موقفها من الحياة و الناس .

اذا كانت الخصائص الفنية في (قرارة الموجة) قد اصابها الجمود ، فإن المضامين التي عالجتها فيها يمكن توزيعها على قسمين :

الاول : منها امتداد للمضامين المغرقة في الذاتية بجميع خصائصها التي وقفنـــا .. عندها في (عاشقة الليل) و (شظايا و رماد) ، و بوسعنا ان نضم الى هذا القسم جميع قصائد عامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ،و بعضاً من قصائد الخمسينات .

و اقرب هذه القصائد الى (عاشقة الليل) : (دعوة الى الاحلام) ففيهـــا الحنين نفســـه الى الطفولة و الى الماضي . غير ان الماضي فيها يكتسب بعدين : شخصي و تاريخي . تفيد من التاريخي من الموروث العربي (رعي الجمـــال ــ يمكن تصور قصة جميل و بثينة هنا مثلاً) ، و من التاريخ العراقي القديم :

سنحلمُ انّا استَحَلنا صبيِّين فــوقَ التـــــلالْ
بريئين نركضُ فوق الصُخور و نرْعى الجِمال
شريدَين ليس لنا منزلُ غيرَ كوخ الخـــــيال
و حين ننام نمرّغ أجسامنا في الـــــــرمالْ
...
سنحلُم أنا نســير الـــى الأمس لا للـــــــغدِ
و أنا وصَـــــــلْنا إلى بابلِ ذات فجر نـــــدِ
حبيبَين نحْمل عهدِ هوانـــا إلى المَعـــــــــبَدِ
يُباركُنا كاهنُ بابـــــليُّ نقيُّ اليَـــــــــدِ[٢٩]

هذا في حين ان قصيدة مثل (يحكى ان حفارين) ترتبط بقصائد (شظايا و رماد) باكثر من وشيجة . و منذ مطلعها يدخل القارئ جو الخواء الروحـــي و الاستسلام و التعب :

الزمـــــان يـــسيـــــــــــــــرْ
بدقائقه المـــــبطئاتِ الثقـــــالْ
ساحباً خلفه عربـــــــــــات الليالْ
مُثقلاتٍ بأسرارهـــــــا الداكناتْ
الزمانُ يســـــــير ، يُجرّ الحياةْ[٣٠]

و في مقطعها الثالث تنفض يديها من كل شئ،و تصور نفسها ميتة منذ زمن بعيد وتنقلنا معها الى جو من القدم كما تصوره بعض قصص(ادجار الن بو):

((إحفر الآن وحدكَ .. ما عُدْت أقوى أنا
((إحفر الأرضَ وحدك .. إني أحس الفناءْ
((ملءَ كفّي و ملءَ ذراعي ،أحسّ الرجاءْ
((يتلاشى بعيداً وراء مَدَى المُنْحَنى
((حيث مرّ الزمان بنا
((منذ بضع مئاتِ السنينْ
((وغداً سيمرّ بنا من جديد
((فيراكَ لوحدِك تحفر في حسرةٍ و حني
((سيمرّ و تحفرُ أنت ركامَ الجليدْ
((في الثرى ، في عروقي أنا[٣١]

و نقلتنا الى هذا الجو المشبع بالقدم و الاشباح كذلك في قصيدة (صلاة الاشباح) . و هي قصيدة متميزة ببنائها الفني و الدرامي . و هذه سمة جديدة في شعرها لم تتضح معالمها ،لطغيان الغنائية عليه . و يمكن ان نعد قصيدتها (الخيط المشدود في شجرة السرو) آخر قصائد (شظايا و رماد) محاولة اولية في هذا الاتجاه ، و كادت قصيدة (النائمة في الشارع) من مجموعة (قرارة الموجة) تقترب من ذلك ، لولا انها ظلت تراوح بين الدرامية و الغنائية .

اما (في صلاة الاشباح) فقد افادت من الحدث والحوار في التنامي الدرامي للقصيدة ، الى جانب الجو العام الغامض و المخيف الذي يغلف ذلك ، مع الافادة من الاشباح و الاساطير . و القصيدة على اية حال ، تحتاج الى وقفة تحليلية متأنية للكشف عن تركيبتها و عناصر عمارتها الفنية و رموزها و دلالاتها، وهي تستحق ذلك . و كنا نأمل لو عمقت هذا الاتجاه في شعرها التالي ،الا انها لم تفعل ذلك اذ ظلت الغنائية هي السائدة .

إن الاحساس بالحزن و التعب يصدق ايضاً علـــى عـــدد مـــن قصـــائد الخمسينات حتى التي كتبتها في امريكا عام ١٩٥١ ، فكأن انتقالها الى دنيا مختلفة كل الاختلاف عن دنيانا ،لم يستطع ان يغير من ذلك الحزن ، و لا هذا التعب ، بل امتدا الى (الوصول) و (لحن للنسيان) و (الهاربون) و لعلها القصائد الوحيـــدة التي كتبتها هناك .

ففي احدى قصائد الخمسينات و هي (الى العام الجديد) تعفينا الشـــاعرة من مهمة الحكم و التحليل ، و تضع بين ايدينا اعترافاً بسر مأساتها المســـتمرة ،و هروبها من الحياة و ما فيها من حلاوة و مرارة و و تعزو بعض الشعور عنـــدها الى ترف القصور :

نحن العراة من الشعور، ذوو الشفاه الباهته

الهاربون من الزمان الى العدمْ

الجاهلون أسى الندمْ

نحن الذين نعيش في ترف القصورْ

و نظلُّ ينقصنا الشعور .

و نود لو عرف الزمانْ

يوماً الينا دربه كالآخرين

لو اننا كنا نؤرخ بالسنين ،

لو اننا كنا نقيد بالمكان

لو أن أبواب القصور الشاهقات

كانت تجيءُ قلوبَنا بسوى الهواء ،

لو اننا كنا نسير مع الحياة

نمشي ، نحس ، نرى ، ننام

و ينالنا ثلج الشتاءْ

و يلفُّ جبهتنا الظلام

أواه لو كنا نحسّ كما يحس الآخرونْ[٣٢]

و ينطوي هذا الاعتراف على كثير من النبل .

و ثاني هذين القسمين ، تمثله قصائد خرجت بها الشاعرة من نطاق ذاتها، الى رحاب القضايا الاجتماعية والقومية والانسانية ، كما في(الشهيد)المهداة الى شهدائنا في فلسطين،و(النائمة في الشارع) و(مرثية امرأة لا قيمة لها) و(الارض المحجبة) و (الراقصة المذبوحة) التي حيت بها ثورة الجزائر ،و(غسلاً للعار) .

و هذا يعني ان دائرة هذا التوجه قد اتسعت نسبياً منذ مطلع الخمسينات ، حتى صارت هي الدائرة الرئيسة في مجموعتيها التاليتين (شجرة القمر) و (يغير الوانه البحر) ، اذ انحسر الألم و اليأس الى محيطها الخارجي ، تاركين مكانهما للفرح و الحس الاجتماعي و القومي و الانساني ، و ابتدأت بهما نازك الملائكة مرحلة جديدة من حياتها الشعرية الطويلة .

الخاتمـــــة

يُعدُّ الحزن ظاهرة اجتماعية ونفسية لها اسبابها الموضوعية والذاتية وهي النتيجة الحتمية لتفاعل تلك الاسباب مع تطور الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحالة النفسية للفرد ودرجة الاحساس بما يحيط به .

وقد اثرت الحر ب العالمية الثانية تأثيراً كبيراً في تطور الشعر العراقي الحديث لما حملته الى الشرق من تيارات فكرية وشعورية . وكان العراق من ابرز الاقطار التي ظهر فيها هذا التأثير نتيجة لذلك فقد شاعت مضامين الحزن والغربة وما يتصل بهما من معاني الخوف واليأس والتشاؤم في الشعر العراقي الحديث مما جعل من ورود تلك المضامين ظاهرة بارزة وقف عندها النقد .

واذا كانت دلالات الحزن والغربة قد ظهرت عند رواد الشعر العراقي الحديث بصورة عامة ، فاننا تلمسنا اثر هذه الدلالات والمظاهر جلية في شعر نازك الملائكة ــ ولا سيما في دواوينها الثلاثة الاولى ــ بصورة خاصة .

وقد يبدو فيما قدمناه من كلام عن عاطفة الحزن لدى الشاعرة ، كما لو كانت هذه العاطفة مأخذاً ــ وهذا ما درج عليه اغلب الباحثين ــ وهو ليس بصحيح ، لعدة اسباب :

الاول : ان الحزن عاطفة نبيلة شأنها شأن بقية العواطف الانسانية الخيّرة ، ولها دواعيها واسبابها في أي زمان ومكان ، وإن اختلفت من شخص لآخر باختلاف الظروف الذاتية والموضوعية . ونكرانها لا يصدر الا عن رغبة مثالية تدخل في باب التمنيات ، لأن الحياة نفسها قائمة عل النقص والتغير والتناقض ، ويكفي ان يكون نهايتها الحتمية هي الموت ، ليكون ذلك وحده سبباً كافياً لشعور الانسان الحساس بالحزن ــ ان الحياة بالصورة التي نعرفها لا يمكن ان تكون سعادة خالصة ، بل لن يكون بوسع الانسان الاحساس بالسعادة لولا الحزن وغيره من العواطف المختلفة . ولعل القساة غلاظ القلوب لا يحزنون !

الثاني : ان نازك الملائكة في (عاشقة الليل) ، ومن خلال هذا الحزن ، كانت صادقة اشدّ الصدق مع نفسها ، ومع قرائها ، ذلك انها لم تفتعل هذه العاطفة افتعالاً ، كما انها لم تكن بدعاً وحدها في ذلك ــ وان تميزت برهافة حسها ــ بل عبرت بحزنها عن جيل كامل من الشباب يوم ذاك كان يحس احساساتها ــ اذا تركنا خصوصيات دواعي الحزن عند المرأة للمرأة ـــ بالصورة التي فصلنا الحديث عنها فيما تقدم : بل ان قراءة قصائدها يوم ذاك كانت متنفساً لكثير من القراء والقارئات من الكوابح والضغوط النفسية ، وتعزية عن مرارة الواقع الذي عاشوه .

الثالث : لقد تجمعت عوامل عديدة لتحدد لنازك نوع شعرها في هذه المرحلة الاولى من حياتها التي تنتهي بنهاية الخمسينات من هذا القرن الماضي وقد كانت اول هذه العوامل . عوامل خاصة بالشاعرة فقد كانت لطبيعتها الرقيقة واخفاقها فيما هو اقرب شيء لشعرها في عاطفتها وخوفها من الموت ورؤيتها الفلسفية وغربتها الروحية وتاثرها بالشعراء الرومانسيين العرب والاجانب .

وطبيعة المرأة الميالة للحزن ولعل اقوى سبب هو موت امها يضاف الى ذلك ثقافتها الواسعة . وظروف عامة

مر بها مجتمعها ، ومن هنا نجد ان هذه المضامين ارتبط احدهما بالآخر وكانت سبباً له . وقد كانت هذه الاسباب مراحل تدرجت مع الزمن كما راينا .

الرابع : ان ما بدا ياساً او فشلاً او حتى ثورة ، كنتيجة لهذا الحزن ، مصرحاً به او مخبوء اً في النسيج العضوي للقصيدة ، لم يكن في حقيقته الا غلالة خارجية تكشف العين النافذة من ورائها عن تشبث عميق بالحياة بلغ حد العشق .

ويمكننا من هذا ان نتبين ، وفي ضوء ما قدمناه من تحليل ، ان الدوافع الذاتية لدى نازك هي اقوى الدوافع جميعاً على كتابة الشعر ، وان اقوى الدوافع الذاتية عندها هي : تحقيق حلم اللقاء بشريك الحياة (الزواج) الذي جاء مخفياً تارة ومصرحاً به تارة .

لقد تحقق هذه الحلم فعلاً فانتفى بذلك اقوى دافع ذاتي على كتابة الشعر ، بل حتى لم ينل من مجموعة (شجرة القمر) سوى قصيدتين :

اتخذت من (البحر) رمزاً للحياة ، ومن (الزورق) رمزاً لحياتها الذاتية ، ومن (الشاطئ) رمزاً للوصول الى هذا الحلم . وقد عادت الى هذه الرموز ــ لتؤكد ما ذهبنا اليه ــ في اولى قصائد مجموعتها الخامسة (يغيرالوانه البحر) التي تحمل العنوان نفسه.

وقد نجحت الشاعرة في توظيف التناقض بين الصور لخدمة الموضوع ، والبناء الفني ، وخلق جو نفسي خاص ــ لا سيِّما في مجموعتها الثانية (شظايا ورماد) التي عمقت بها الشاعرة هذا الاتجاه ــ اما في مجموعتها الثالثة (قرارة الموجة) فتتوقف الخصائص الفنية عن النمو وتغدو المجموعة في افضل احوالها استمراراً لما قطعته الشاعرة من شوط في (شظايا ورماد) . اما في الاحوال الاخرى فتمثل عودة الى ما كانت عليه في (عاشقة الليل) ، بل واكثر من ذلك ربطت القصيدة بقيود جديدة .

وبعد هذه الجولة مع شعر نازك ارجو ان تكون اضاءة بحق الشاعرة اولاً وبحق النقد الادبي ثانياً .

((والله الموفق))

الهوامش

١. نازك الملائكة في المراجع العربية والمعربة:د. صباح نوري المرزوك، سلسلة شهرية تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة،الطبعة الاولى بغداد-٢٠٠٩.

٢. (عاشقة الليل) : نازك الملائكة ، بغداد ، مطبعة الزمان ، ١٩٤٧ .

٣. ديوان نازك الملائكة،المجلد الأول،دارالعودة ، بيروت ط ١٩٨١، ص ٥٥٣ .

٤. المصدر نفسه ، ص ٦٣٨ .

٥. المصدر نفسه ، ص ٤٦١ ، ص ٤٦٧ ، ٥٩٣ .

٦. المصدر نفسه ، ص ٤٦١ .

٧. ينظر دراسة في شعر نازك الملائكة بقلم د. محمد عبد المنعم خاطر ــ القاهرة . الهيئة المصرية العامة ١٩٩٠ ، ص١١٠ .

٨. ينظر مثلاً :

ــ السياب:عبد الجبار عباس،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،١٩٧٢، ص١٥٥ .

ــ الشعر العراقي الحديث وروح العصر : جليل كمال الدين ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٧ ، ص ١٥٦ .

ــ الشعر النسوي في العراق مضامينه وخصائصه الفنية ، علي محمد حسين الخالدي ، ماجستير ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٨ ،ص ٦٩ .

ــ دراسات تحليلية في الشعر المعاصر : د. محيي الدين صبحي ، وزارة الثقافة والارشاد التربوي والقومي ، دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ١٣٥ .

ــ دراسات في النقد الادبي : د. احمد كمال زكي ، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٠ ، ص ١٤١ .

ــ ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة ، أسبابها وقضاياها المعنوية والفنية : د. سالم احمد الحمداني ، مؤسسة دار الكتب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٠ ، ص ٥٤ .

ــ نازك الملائكة الموجة القلقة : ماجد السامرائي ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص ١٩ .

٩. ديوان نازك الملائكة ، المجلد الأول ، ص ٥٢٠ .

١٠. المصدر نفسه ، ص ٥٢٠ .

١١. المصدر نفسه ، ص ٤٦٩ ــ ٤٧٠ .

١٢. ديوان نازك الملائكة ، المجلد الثاني دار العودة ــ بيروت ، ص ٢٨٢ ،

١٣. ديوان نازك الملائكة ، المجلد الأول ، ص ٤٧٥ .

١٤. المصدر نفسه ، ص ٤٧٢ ــ ٤٧٣ .

١٥. المصدر نفسه ، ص ٥٠٣ ــ ٥٠٤ .

١٦. المصدر نفسه ، ص ٦٥٥ ــ ٦٥٧ .

١٧. المصدر نفسه ، ص ٤٨٣ ــ ٤٨٤ .

١٨. المصدر نفسه ، ص ٥٧٦ ــ ٥٧٧ .

١٩. المصدر نفسه ، ص ٤٩٤ ــ ٤٩٦ .

٢٠. المصدر نفسه ، ص ٤٨٢ ــ ٤٨٣ .

٢١. المصدر نفسه ، ص ٤٩٠ ــ ٤٩١ .

٢٢. ينظر في ذلك :

ــ أدب المرأة العراقية : د. بدوي طبانة ، دار الثقافة ، الطبعة الثانية ، بيــروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٠٥ .

ــ لغة الشعر العربي الحديث : د. السعيد الورقي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٨ ، ص ٣٢٩ .

ــ لغة الشعر بين جيلين : د. ابراهيم السامرائي ، المؤسسة العربيــة للدراســات والنشر ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٦٠ ــ ١٦١ .

ــ الانسان في شعر نازك الملائكة:د. محمد مصطفى هدارة،الكتــاب التــذكاري: نخبة من اساتذة الجامعات شركة الربيعان للنشروالتوزيع،الكويت،١٩٨٥،ص١٥٤.

ــ المرأة وصورة المرأة في شعر نازك الملائكة : سلمى الخضــراء الجيوســي ، الكتاب التذكاري ، ص ٢٥٦ .

ــ الوتر الحزين في شعر نازك الملائكة : د. احسان النص ، الكتاب التــذكاري ، ص ٢٧٣ .

ــ النقد الجامعي للشعر العراقي الحديث : عباس ثابت حمود ، دكتــوراه ، كليــة الآداب ، جامعة بغداد ١٩٨٩ .

٢٣. ينظر مثلاً :

ــ مقال في الشعر العراقي الحديث : عبد الجبار داود البصري ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٦٨ ، ص ١٧ــ ١٨ .

ــ المؤثرات الاجنبية على الشعر العراقي الحديث : د. احمد كمال زكــي ضــمن الشعر والفكر المعاصر ، منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية ، سلســة كتاب الجماهير و ١٩٧٤ .

ــ الغابة والفصول: طراد الكبيسي ، دار الرشيد للنشر، بغداد ، ١٩٧٩، ص ٤٥ .

ــ المؤثرات الاجنبية في شعر نازك الملائكة حتى عــام ١٩٥٠ د.ســلمان داوود الواسطي، الكتاب الذهبي : مجموعة اساتذة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٥ ، ص ٥٥ .

ــ النفخ في الرماد . دراسات نقدية : د.عبد الواحد لؤلؤة ، دار الرشــيد للنشــر ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ١١ ــ ١٢ .

٢٤. ديوان نازك الملائمة ، المجلد الثاني ، ص ٣١ .

٢٥. ديوان نازك الملائمة ، المجلد الثاني ، ص ٤٠ .

٢٦. المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

٢٧. المصدر نفسه ، ص ١١٥ .

٢٨. المصدر نفسه ، ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .

٢٩. المصدر نفسه ، ص ٢٣٥ .

٣٠. المصدر نفسه ، ص ٣٢١ .

٣١. المصدر نفسه ، ص ٣٢٣ ــ ٣٢٤ .

٣٢. المصدر نفسه ، ص ٢٥٠ ــ ٢٥٢ .

المصادر والمراجع

اولاً : المجموعات الشعرية

١ــ (عاشقة الليل) : نازك الملائكة ، بغداد ، مطبعة الزمان ، ١٩٤٧ .

٢ ــ ديوان نازك الملائكة ، المجلد الاول ، ط٢ ، دار العودة ــ بيروت ١٩٧٩ .

٣ ــ ديوان نازك الملائكة ، المجلد الثاني ، ط٢ ، دار العودة ــ بيروت ١٩٧٩ .

ثانياً : الكتب

١ ــ أدب المرأة العراقية: د . بدوي طبانه ، دار الثقافة ، ط٢ ، بيروت، ١٩٧٤ .

٢ ــ دراسات تحليلية في الشعر المعاصر : د . محيي الدين صبحي ، وزارة الثقافة و الارشاد التربوي و القومي، دمشق ، ١٩٧٣ .

٣ ــ دراسات في النقد الادبي : د . أحمد كمال زكي ، دار الاندلس للطباعة و النشر و التوزيع ، ط٢ ، ١٩٨٠.

٤ ــ دراسة في شعر نازك الملائكة : د . محمد عبد المنعم خاطر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

٥ ــ السياب: عبد الجبار عباس البصري،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،١٩٧٣.

٦ ــ الشعر العراقي الحديث و روح العصر : جليل كمال الدين ، دار العلم للملايين ، بيروت ،١٩٨٧ .

٧ ــ الشعر و الفكر المعاصر ، منشورات وزارة الاعلام ، سلسلة كتاب الجماهير، بغداد ، ١٩٧٤ .

٨ ــ ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة ، اسبابها و قضاياها المعنوية و الفنية : د . سالم احمد الحمداني ، مؤسسة دار الكتب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٠ .

٩ ــ الغابة و الفصول : طراد الكبيسي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٧٩ .

١٠ ــ لغة الشعر بين جيلين : د . ابراهيم السامرائي ، ط٣ ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ١٩٨٠ .

١١ ــ لغة الشعر العربي الحديث : د . السعيد الورقي ، الهيئة المصرية العامة ، ط١ ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

١٢ ــ مقال في الشعر العراقي الحديث : عبد الجبار داود البصري ، منشورات وزارة الثقافة و الاعلام ، دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٦٨ .

١٣ ــ نازك الملائكة ، دراسات في الشعر و الشاعرة : نخبة من اساتذة الجامعات، شركة الربيعان للنشر و التوزيع ، الكويت ، ١٩٨٥ .

١٤–نازك الملائكة في المراجع العربية والمعربة:د. صباح نوري المرزوك،سلسلة شهرية تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة ، الطبعة الاولى –بغداد .٢٠٠٩

١٥ ــ نازك الملائكة ، الكتاب الذهبي : مجموعة اساتذة ، دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد ١٩٩٥ .

١٦ ــ نازك الملائكة الموجة القلقة : ماجد السامرائي ، منشورات وزارة الثقافة و الاعلام ، بغداد ١٩٧٥ .

١٧ ــ النفخ في الرماد ، دراسات نقدية : عبد الواحد لؤلؤة ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٣ .

ثالثاً : الرسائل الجامعية

١ ــ الشعر النسوي في العراق مضامينه و خصائصه الفنية ، علي محمد حسين الخالدي ، ماجستير ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ١٩٨٨ .

٢ ــ النقد الجامعي العربي للشعر العراقي الحديث ، عباس ثابت حمود ، دكتوراه كلية الآداب ، جامعة بعداد ١٩٧٩ .